

البناء الفني في رسائل فضائل اهل الاندلس

الكلمات المفتاحية: البناء الفني. رسائل. الفضائل

البحث مستل من اطروحة دكتوراه

م. م شيماء ستار جبار الخفاجي

أ.د هدى شوكت بهنام

جامعة ديالى/ كلية التربية للعلوم الانسانية

جامعة المستنصرية / كلية التربية

muthanasaba@yahoo.com

Dr_huda-shawkat @yahoo.com

الملخص

اعتنى كتاب الرسائل ببناء رسائلهم، لأنها تعبر عن اهمية الموضوع وتبين مدى حرصهم الشديد على رونقها ، فهي الباب الذي يلج منه المتلقي الى النص ،ولأنها كانت توثيقاً لإحداث ومضامين الحياة وصورة للواقع الاجتماعي والثقافي والفكري فقد حاول الكتاب الخروج بها الى الادبية لتعبر عن طبيعة اهل الاندلس المائلة الى السهولة والسير على نهج المشاركة مع الاحتفاظ بخصوصيتهم .

بناء الرسائل

المقدمة

ولد الانسان مجبولا على حب وطنه، فهو حامل لهويته وثقافته ،مكتنز وفاء له، معبر بهذا الحب عن شخصية مستقيمة تحب العيش بعزة وكرامة، ولا ينكر حبه الا متنكر خائن لانتمائه، واهل الاندلس خير من عبروا عن حبهم لوطنهم وهويتهم الاندلسية والثقافية من خلال هذه الرسائل المميزة المعبرة بعاطفة متدفقة هادئة متزنة بعيدة عن الهجاء المقذع الجارح قريبة من المحاجة والاقناع لتصل الى المدح والفخر فكانت رسائل الفضائل توثيقاً لأحداث ومضامين الحياة وصورة للواقع الاجتماعي والثقافي والفكري .

ونحن نتحدث عن بناء الرسائل لابد من التعريف بشكل موجز بهذه الرسائل فقد ذكر المقري في كتابه (نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب) في الباب السابع منه رسائل متضمنة موضوعا واحدا هو فضائل اهل الاندلس لكل من ابن غالب وابن سعيد وعن الحميدي وعن ابن بسام وعن الحجاري ورسالة ابن حزم وتذييل ابن سعيد والشقندي واثناء الدراسة عثرنا على رسالة لابن صقلاب مشابهة لرسائلنا وقد اغفلها المقري ولا نعلم السبب

، وبهذه الرسائل سار الشقندي وابن حزم وابن صقلاب وتذييل ابن سعيد على ما كان متعارفاً عليه عند المشاركة من منهج كتابة الرسائل ، اما نص ابن غالب فهو يختلف عما وجد في مخطوطة فرحة الانفس^[١] ، ونص ابن سعيد ونص الحميدي انفرد بذكرهما المقري مما جعل لهذه النصوص الموجودة في النسخ ميزة خاصة اما الحميدي فقد كان نصه بديهية لابن هذيل معرضاً بها نص مشرقى فإيرادها في هذه المجموعة من الرسائل النثرية كان لها نظره اخرى فالمقري عالم جليل وصاحب علم وحافظة واسعة فإيراده لهذا النص الشعري البديهي نظرة نقدية وجهت المتلقي الى حقيقة قد تكون اغفلت في خضم هذه النصوص النثرية وهي تميز اهل الاندلس بالشعر كما تميزوا بالنثر وفضلهم بارز في الادب عامه ، واما نص ابن بسام فهناك جزء من النص موجود في مقدمة الذخيرة ونص الحجاري ذكر المقري ان جزءاً منه موجود في المسهب ، واما رسالة ابن حزم والشقندي فقد ذكرهما المقري كاملين في النسخ، ورسالة ابن صقلاب ذكرها الدكتور فوزي عيسى في كتابه (رسائل اندلسية) واعاد نشرها الدكتور محمود خياري في مجلة الذخائر^[٢] من غير ان يشير الى كتاب الدكتور فوزي عيسى ، وبعد هذه الاطلالة الموجزة على الرسائل يقتضي منا البحث الاكاديمي التعريف بشكل موجز بمصطلح الفضائل فالفضائل: لغة هي الفضل والفضيلة وهو ضد النقص وهو الدرجة الرفيعة والتفاضل التمازي في الفضل^[٣] ، والتفاضل بين القوم : ان يكون بعضهم افضل من بعض ، والافضال: الاحسان^[٤] ، كما في قوله تعالى : "فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً"^[٥] ، واما في الاصطلاح فهي الاحسان ابتداء بلا علة^[٦] ، فهي بذلك نهج قام اساساً على الانفعال الشعوري لدى المبدع^[٧] بمعنى اخر هو خطاب يؤسس دلالاته على رؤية نقدية ، استمد موضوعيته من مرجعيات فكرية ، وذوقية ولغوية وبلاغية متجذرة في الثقافة^[٨] ، وعند العودة الى رسائلنا والمقامات التي تناولت الفضائل^[٩] نجد الاندلسيين يستعملون لفظة فضائل مستبعدين أي لفظة اخرى ولعل السبب يعود الى ان اهل الاندلس شعروا بعروبيتهم على مر الزمن ، لذلك تفاضلوا على العرب بما حباهم الله وحسب^[١٠] ، كما ان هذه الرسائل كانت موجهة الى بر العدو وهم في زمن الرسائل كانوا يحكمون الاندلس فلم يرغب الكتاب استثارة الحكام لذا وظفوا لفظة فضل ، او ان السبب هو هذه اللفظة وما تحمله من معنى اختيار شيء على شيء اخر فيكون لديك شيء تتفاضل به على غيرك ، وغيرك لديهم ما يتفاضلون به عليك ، فهذه الاسباب مجتمعة هي ما دفعت اهل الاندلس الى توظيف فضل ،

اما التعريف بالرسائل فقد سبقتنا دراسات متعددة اليه ولكننا نجد من الجدير بالذكر ان الجذور الاولى لرسائل الفضائل قد وجدت منذ العصر الجاهلي فالإسلامي الا ان الاسلام حاربها لأنها تقوم على اسس العصبية القبلية^[١١] ولكن سرعان ما عادت في العصور اللاحقة واذ اردنا ان نعرف رسائلنا فإنها رسائل ادبية انتجتها الحضارة والشخصية الاندلسية المعترزة بنفسها بما حباها الله من فضل ونعمة جمعت بين الرسائل الفكرية والرسائل البيانية واعتنت ببسط الادلة والجدل والحوار، وترمي في الغالب الى اظهار براعة الكاتب في الاحتجاج والتمرس في الاساليب السائدة في عصره، ولم تخرج في حقيقتها عن النزعة الادبية للمدح والذم التي صارت لونا اسلوبيا قائما بذاته، فلما صارت المناظرات الكلامية من دعائم ثقافة المجتمع كان من الطبيعي ان تترك اثارها في ادبه فهذه الرسائل طبعت لتحليل الافكار وتركيبها مستعينين بالاستدلال والعلم^[١٢]، وقد ((وضع ادباء القرن الخامس اسسه وقواعده، ونهجوا للناس طريقة قائمة على الموازنة والاستيعاب والتركيز على أمور العلم والفن والحضارة والادب وغيرها))^[١٣]. كما أن أهم ما تميزت به الرسائل هو السير على اليات الجاحظ في الافهام والاقناع ومراعاة المقام للمقال واختيار الألفاظ المناسبة والحرص على الابانة لكشف المعنى بالقول البليغ والمبالغة في وضوح الدلالة لتكون الاعناق اليه اميل والعقول عنه افهم ، والنفوس اليه اسرع ((فان لكل كلمة مع صاحبها مقاما))^[١٤]، فرسائلنا توخت الانغراس في الازهان وامتلاك الافئدة لذا احاطت نفسها بوسائل الاقناع اللازمة للدعوة والمحاورة والرد والنقص^[١٥]، وهي بذلك جمعت بين الرسائل والخطب لتكون فرعا مهما من فروع الادب مشترطاً الجودة والاتقان لأنه يقرأ ويتأمل ويحوك كلامه ويجوده.^[١٦]

بغية الاقناع والدفاع .

بناء الرسائل

عني الكتاب بإقناع المتلقي والتأثير فيه وشد انتباهه ومن ضمن ما عني به الكتاب بناء الرسائل بناءً يسهم في إبراز الغرض الذي أنشئت من أجله من المقدمة المتضمنة التمهيد ثم المتن الذي يحوي غرض الرسالة فالخاتمة، وهذه هي أهم الأقسام. أما البسمة والتصدير والتسليم والتخلص بـ (أما بعد) فكلها أقسام ثانوية قد توجد في الرسائل حسب الموضوع وقد تتضمنها التقسيمات الأولى، لذا سننتمد على التقسيم الأكثر قبولا في مجال دراستنا.

البدء أو المقدمة

تأثرت الرسائل بالغرض كثيراً فإظهار الفضائل لأهل الأندلس وتفوقهم جعل الكتاب يهتمون أيما اهتمام بالبدء لأنه أول جزء من الرسالة يصل الى المتلقي ويمهد لاستثارة انتباهه، لذا نجد الاستهلال في الرسائل - موضوع الدراسة- قد دل على مضمونها، فكان مطابقاً للغرض ودليلاً عليه، وكما اثبت على ذلك أبو هلال بقوله: ((احسنوا معاشر الكتاب الابتدئات فإنهن دلالات البيان))^[١٧]، وكما قال ابن رشيق: ((فحسن الافتتاح داعية الانشراح ومطية النجاح))^[١٨]، وهو أول ما يقع في السمع من كلام^[١٩]، ويدل على ما بعده من مضمون الرسالة في جذب انتباه المتلقي ومعبر عن مشاعر الكاتب الحقيقية الصادقة حتى يشعر المتلقي بها من خلال إثارة الانفعال المناسب عنده، فقد يطول أو يقصر تبعاً لما يقتضيه المقام، فبعض الرسائل تضمنت التحميد كما في رسالة ابن حزم إذ يقول: ((الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد عبده ورسوله، وعلى أصحابه الاكرمين، وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته الفاضلين الطيبين))^[٢٠]، وكذلك رسالة الشقندي إذ يقول: ((الحمد لله الذي جعل لمن يفخر بجزيرة الأندلس أن يتكلم ملء فيه، ويطنب ما شاء فلا يجد من يعترض عليه ولا من يثنيه، إذ لا يقال للنهار: يا مظلم، ولا لوجه النعيم يا قبيح))^[٢١].

وبذا أدرك ابن حزم والشقندي بأن هناك أموراً لائقة للحمد وأن الموضوع بحاجة للاستفتاح، فأنت ملائمة لموضوع الرسالة لتوفر التشويق وتجذب المتلقي مستعينا بصيغ بسيطة موجزة تناسب مقام إنشائها خاضعة للقاعدة المتعارف عليها التي أشار إليها صاحب (إحكام صنعة الكلام) إذ قال ((الإكثار من الدعاء في الرسائل من أبهر الدلائل على ضعف البضاعة في الصناعة))^[٢٢]، فابن حزم، سار على النمط الذي كان سائداً أيامه من التمهيد والصلاة على النبي، أما الشقندي فقد جعل الحمد لله فقط لأنه حباه بهذا البلد الجميل، فارتبطت الصلاة على النبي بموضوع الرسالة وان اختلفوا في العبارات، وقد عدّ العلماء ذلك من دلائل الحذق والمهارة، فقال ابن جني: ((إذا كان المرسل حاذقاً أشار في تحميده إلى ما جاء في الرسالة من أجله))^[٢٣]، فعبرت عن الظروف النفسية والأحوال الوجدانية.^[٢٤]

وقد أشار حازم القرطاجني الى أهمية الانتقال من المقدمة أو التحميد الى غرض الرسالة من غير أن يشعر المتلقي بانقطاع أو تضمين الكلام الحشود والاخلال واضطراب الكلام فلا

بد من الانتقال الهادئ اللطيف حتى يحدث التخيل والانفعال المطلوب مما يحدث تفاعل مع المتلقي من خلال احداث تأثير في النفوس وتحسين الكلام^[٢٥]، وذلك بتوظيف جمل متراسة متسلسلة ومنتصلة من التحميد الى الغرض من غير انقطاع بل يكمل بعضها بعضاً.

أما التخلص من التحميد والدخول الى غرض الرسالة فقد أشار إليه حازم القرطاجني من أن حسن التخلص ضرورة أساسية للتحرز من انقطاع الكلام ومن الحشو والاخلال واضطراب الكلام فهو أشد تأثيراً في النفوس وأعون على ما يراد من تحسين الكلام فهذا الانتقال الهادئ برز براعة الكتاب واتقانهم من خلال نقل المتلقي من حال الى حال مما يجعله يتخيل وينفعل ويتفاعل مع الرسالة.^[٢٦]

وقد سار حسن التخلص على نهجين: الأول ابتداء الرسالة بـ (أما بعدُ)، والثاني الدخول إلى الغرض مباشرة، فالسير على النهج الأول من ابتداء الرسالة بـ (أما بعدُ)، وهو لا يصلح إلا في المخاشنة والعتاب^[٢٧]، كما في رسالة ابن حزم إذ يقول: ((أما بعد يا أخي يا أبا بكر سلام عليك سلام أخ مشوق طالبت بينه وبينك الأميال والفراسخ، وكثرت الأيام والليالي، ثم لقيك في حال سفر ونقلة، ووادك من خلال جولة ورحلة)).^[٢٨]

فابن حزم أحسن التخلص باستخدام (أما بعد) ثم الدعاء الذي أدى جمالية تعبيرية ودل على تمسكه بتقاليد المشاركة في الرسائل مما جعله جزءاً من الرسالة وجهه فيه المتلقي الى ما دار في ذهن الكاتب من أفكار أراد ترسيخها وقيم حافظ عليها وخلجات نفسية أراد البوح بها، وبعد هذا الدعاء والسلام يطنب ابن حزم في ذكر الأسباب حتى يصل الى الذروة فيقول: ((وفي وصول كتابي على هذه الهيئة حيثما وصل كفاية لمن غاب عنه من أخبار تأليف أهل بلدنا مثل ما غاب عن هذا الباحث الأول)).^[٢٩]

فبعد ذكر سبب هذه الرسالة وما ورد في رسالة ابن الربيب التي أورد ابن حزم بعض أجزاءها، نجده يتبع نهج المشرق بالتخلص من هذه المقدمات بذكر (ووصول كتابي) كما أشار إليه الكلاعي^[٣٠] أنه من ردّ الجواب، ليبدأ ابن حزم رسالته بما فتح الله عليه من الجواب، فيقول: ((فإنما المراد من أهل تلك الناحية من نأى عنه علم ما استجلبه السائل الماضي، وما توفيقني إلا بالله سبحانه))^[٣١]، فهذه المقدمة الطويلة لابن حزم تحيلنا الى ما كان عليه من اضطراب وقلق ورغبة في الرد بأسلوب مقنع والسير على نهج المشرق ليدعم به حجته من تمكن أهل الأندلس بالسير في هذا الشأن على نهج المشرق، وهو ما دفع

الشقندي أيضا لتكون رسالته مشابهة لرسالة ابن حزم لأن رسالة الآتين جاءتا جوابية مما سبب هذه التشابه، غير ان رسالة ابن حزم احتاجت الدخول الى الغرض لبيان السبب فكانت طريقته غير مباشرة فالمعنى بالجواب قد وفي لذا اتجهت الرسالة الى من قلل من شأن أهل الأندلس عامة والى صديقه الذي وجد عنده الرسالة خاصة، أما الشقندي فرسالته جوابية في مجلس صاحب سبتة، وكان الجميع متطلعا لهذه الرسالة ويعلم متى والى من كتبت، لذا دخل الشقندي الى الغرض مباشرة كما في قوله: ((أما بعد فإنه حرك مني ساكناً، وملاً مني فارغاً، فخرجت عن سجيتي في الاغضاء، مكرها الى الحمية والإباء...)).^[٣٢]

فالشقندي عرّف موضوعها من أولها بجعل الحمد لله مقروناً بما في الأندلس من فخر وظيفه منذ البدء مستعيناً بالشعر ليكون دليلاً مناسباً لطبيعة الموضوع وجوه العام وليبين مدى اطلاعه وثقافته على آداب المشرق وتمكنه منها بسيره على تقاليدهم في الكتابة بالاعتناء بالبدء والاستهلال وليدلل بالعقل والعاطفة فضل أهل الأندلس وتميزهم. أما نص الحميدي فقد سار على ما سار عليه الأوائل من الوقوف على الاطلاع وذكر الحبيبة والمنزل فيقول:

عرفت بعرف الريح أين تيمموا وأين استقل الظاعنون وخيموا

خليلي رداني الى جانب الحمى فليست الى غير الحمى أتيتم^[٣٣]

أما رسالة ابن صقلاب فقد بدأ بالصلاة على النبي ثم بأربعة أبيات لتكون البدء والدخول الى الغرض مباشرة من دون حاجة الى مقدمة لأنها جوابية والمقصود معروف لدى المتلقي والكاتب إذ يقول: ((صلى الله على محمد وعلى آله وسلم)):

أتتني من وشي البديع وشيجة تبهرج عنها وشي صنعاء واليمن

فقلتُ وقد راقت حُلاها واشرقت علاها لمن هذي الحلى والعلى لمن؟^[٣٤]

أما باقي النصوص فقد اتبع الكتاب المنهج الثاني وهو الدخول الى الغرض مباشرة من دون تحميد أو فصل الخطاب، لأنها نقول محددة الغرض فلا مجال للتمهيد وربطه بما بعده، وهذا مذهب أكثر اهل الأندلس^[٣٥]، فكانت النقول مترابطة مشكلة نسيجاً متكاملماً منذ البداية كما عند ابن بسام وتذييل ابن سعيد ونص ابن غالب، وكلام الحجاري في المسهب، ونص الحميدي، ونص ابن سعيد، وهي بهذا تظهر مقدرة المقري على التأليف والتلخيص وبراعة الكتاب في تنسيق النصوص وترابطها.

فها هو ابن بسام يقول: ((أشرف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها، فبقي النسل فيها بكل اقليم، على عرق كريم فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر))^[٣٦]، وايضا ابن سعيد بقوله: ((يعلم الله تعالى أنني ما أقصد إلا انصاف المنصفين الذين لا يميل بهم التعصب، ولا يجمع بهم الهوى)).^[٣٧]

فاين بسام بدأ رسالته بجمل اسمية وابن سعيد بجمل فعلية إلا أن الاثنتين دخلا الى غرض الرسالة مباشرة من دون تمهيد أو مقدمة، ولعل السبب رغبة أهل الأندلس بالخروج عن تقاليد المشاركة وإثبات تفوقهم^[٣٨]، أو لأن مقام الرسائل لم يكن بحاجة الى مقدمة وتمهيد بل يحتاج الى الإسراع والرد لبيان تفوق الأندلسيين وذكائهم وفضائلهم. فكان الدخول الى الغرض مباشرة ليكون منبهاً قوياً للمتلقي ليحسن الإصغاء.

وهنا لا بد من التأكيد أنّ رسالة ابن حزم والشقندي كانتا جوابية مما منح الكاتبين الوقت الكافي للإجابة لذا بدأتا بالحمد والمقدمة وغلب عليها الطابع الهادئ. أما نص الحميدي فكان معارضا بديهياً لذا عول عليه لإبراز تفوق أهل الأندلس على المشاركة.

وعموماً فقد أحسن الكتاب البادئون بمقدمة بالغرض فجاءت رسائلهم متسلسلة الأفكار ومرتبطة تتم عن انشاء وتصميم مدروس، وثمره لمعانة الكتابة والتمرس بها، وهذه المنهجية الدقيقة والتقصي لأبعاد الموضوع صدرت عن عقل رزين واسلوب كتابي يدقق، ويحدد ويستقصي مواطن الجمال والتأثير.^[٣٩]

العرض

العرض في أي عمل أدبي جوهره، والأساس فيه، وهو كذلك الجزء الذي حفز الأديب لإنشاء عمله الأدبي، لذا اهتم الكتاب به ايما اهتمام ليفهموا المتلقي ويثيروا فيه لذة التتبع، من غير تعقيد وغموض، أو ابتذال وسطحية مع إسهام في تأدية الغرض^[٤٠]، وقد اقترنت رسائلنا بالأدلة للتوكيد وإثبات براعة أهل الأندلس وتفوقهم، لذا اعتمد الكتاب على طريقة المحاججة وذكر الأدلة والبراهين وصياغتها على الحوار والنقاش والجدل بين الأفراد والجماعات والأمم^[٤١]، التي تؤيد وجهة نظرهم وتقنع المتلقي، مستخدمين البراهين العقلية، والدلائل النقلية، والقياسات المنطقية، والتضمين والاقتناس لإثبات فضلهم وهذا ما أسهم في وحدة الموضوع والاتلاف بين اجزائه الفنية وترابط أفكارها واتساق معانيها مما ينقل الرسالة الى مستوى التفسير والفهم والتصديق من ذلك رسالة ابن حزم إذ يقول: ((ولا بد من إقامة

الدليل على ما أشرت إليه هاهنا ...، ومن هاجر منا الى غيرنا فلاحظ لنا فيه والمكان الذي اختاره أسعدُ به فكما لا ندع اسماعيل بن القاسم فكذلك لا ننازع في محمد بن هاني سوانا، والعدل أولى ما حرص عليه، والنصف أفضل ما دعي إليه بعد التفصيل الذي ليس هذا موضعه، وعلى ما ذكرنا في الانصاف تراضي الكل))^[٤٢]، وظف ابن حزم ثقافته الفلسفية لكي يضيف الى الرسالة رصانة وجمالاً وتأثيراً فهذه الأدلة (فكما لا ندع اسماعيل بن القاسم) و (لا ننازع في محمد بن هاني) و (ذلك أن جميع المؤرخين من أئمتنا السابقين والباقيين) وهي من البراهين المعروفة لدى جميع أولي العلم اختار المشهور منها لتكون دليلاً يدعم به رأيه وحجته وتوضح الطريق الذي سلكه اهل الاندلس.

وكذلك فقد تميزت الرسائل من ناحية الغرض في ذكر أصناف العلوم التي باهى بها أهل الأندلس بر العدو بالذقة الفائقة في تسلسل الأفكار وترتيبها، والبراعة في تقسيمها، ومما لا شك فيه أن ذلك ناجم عن التروي في انشاء تلك الرسائل والتأنق في اعدادها إذ حرصوا على تسلسل الفكرة وتنظيمها وتقسيم الموضوع الى أفكار مترابطة يكمل بعضها بعضاً^[٤٣]. كما في رسالة الحجاري، إذ يقول: ((ولشطار الأندلس من النوادر والتكتيات، والتركييات وأنواع المضحكات، ما تملأ الدواوين كثرتة، وتضحك الثكلى وتُسلي المسلوب قصته، مما لو سمعه الجاحظ لم يعظم عنده ما حكى وما ركب، ولا استغرب أحدٌ ما أورده ولا تعجب، إلا أن مؤلفي هذا الأفق طمحت همهم عن التصنيف في هذا الشأن فكاد يمر ضياعاً، فقمت محتسباً للظرف فتداركته جامعاً فيه ما أمسى شعاعاً))^[٤٤]، ربط الحجاري بين ما تميز به أهل الأندلس من النوادر والتكتيات وسبب تأليفه في هذا المضمار وبين أهل المشرق ومنهم الجاحظ، والمكانة الكبرى بين كتاب أهل المشرق وهم من ألف العديد من الكتب والرسائل المتميزة.

الخاتمة

وكما أحسن الكتاب البدء فقد احسنوا أيضاً في الخواتيم، ولعل الصلة الوثيقة بين غرض الرسالة، وبين دقة الخاتمة، وأحكام معانيها وتوابعها مع جو الرسالة العام^[٤٥]، هو ما دفع الكتاب الى التنوع في الخواتيم، وقد أكد هذه الحقيقة القلقشندي إذا أشار الى تنوع الإختتامات عند كتاب الرسائل إذ يقول: ((وأعلم أنه لم يكن لهم ضابط للإختتامات ولا ما يقتضي ملازمة اختتام معين لصدر معين بل ذلك موكول الى رأي الكاتب لا يراعي فيه غير الرتبة

وهبوطها حيث تفاوتت رتب الاختتمات عندهم))^[٤٦]، والخاتمة هي القاعدة التي يرسو عليها العمل الأدبي وهي آخر ما يبقى من النص في ذهن المتلقي.^[٤٧]

فقد تعارف الكتاب على أن تكون الخاتمة إما أدعية، أو إقراء للسلام، أو إشارة، مما يصح أن يكون في أحسن الأحوال نهايات تقنية للرسالة، أما النهايات المنهجية ذات المضمون المرتبط بالمعنى العام، المتصل أوثق الصلة بالمقدمة^[٤٨]، وهذا ما وجدناه عند الشقندي، إذ أهتم بها فقال: ((فالحمد لله الذي أطلع من المغرب هذه الشمس، وجعلها بين جميع أهله بمنزلة الرؤوس، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه المختار من صفوة العرب، وعلى آله وصحبه صلاة متصلة إلى غابر الحقب))^[٤٩]، استخدم الشقندي السجع مع هذه الصورة الكنائية الجامعة بين الشمس والرأس وأهل الأندلس، وكما جمع البصر جمع البصيرة أيضاً في هذا الوصف لنبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) المختار في صفوة العرب والمتصل إلى غابر الحقب كذا كنى عن أهل الأندلس فهم المختارون من بين الأمم والباقي ذكرهم. وبذا أدرك بالخاتمة مراده، مع سيره على الأعراف المتعارف عليها وقد أثارت بذلك الانفعال المناسب مما دفعنا إلى فهم موقفه. أما خاتمة ابن حزم فقد قال: ((وقد انتهى ما اقتضاه خطاب الكاتب رحمه الله تعالى من البيان ولم نتزيد فيما رغب فيه إلا ما دعت الضرورة إلى ذكره لتعلقه بجوانبه، والحمد لله الموفق لعلمه، والهادي إلى الشريعة المزلفة منه والموصلة، وصلى الله على محمد عبده ورسوله وعلى آله وصحبه وسلم، وشرف وكرم))^[٥٠]، اعتنى ابن حزم بالخاتمة ومقاطعها ذكراً فيها سبب كتابة الرسالة وما تضمنتها من جواب على قدر سؤال ابن الربيب وذلك ليعطي الحجة بأن ما فاتته لم يكن إلا لأن رسالة ابن الربيب لم تقتضه فكانت رسالته على قدر الحاجة للإجابة، وهذه الإشارة إلى النتائج التي توصل إليها ما هي إلا دليل حازم على القناعة واليقين الذي دار في فحوى الرسالة، أما ذكره للتحميد والصلاة على النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) فما هو إلا السير على النهج المتعارف عليه ولعله أراد التخفيف من جفاف النص بذكره الصلاة والحمد.

وإذا ما أعدنا النظر إلى باقي النصوص لم نجد المقدمة، بل الدخول إلى الغرض مباشرة، ولعل السبب أن مقدمات هذه الرسائل قد تتشابه حتى لم يبرز ابداع الكاتب، لذا رأى المقري حذف هذه المقدمات للاختصار، وتجنباً للإطالة والتكرار، لذا سماها نصوصاً وليست رسائل، فهي نصوص من هذه الرسائل.

أمّا رسالة الحجاري فقد قال: ((فقت محتسباً للظرف فتداركته جامعاً فيه ما أمسى شعاعاً))^[٥١]، فقد ختم الحجاري رسالته بالحكمة المتضمنة المدح ليعطي للمتلقي فرصة للتفكر في خاتمة الرسالة ويثني على فصاحته وبلاغته وبراعته في جميع ما قد ضاع.^[٥٢]

أمّا باقي الرسائل فقد اعتمدت على القطع كما في رسالة ابن غالب إذ يقول: ((وافرغوا فيه من انواع الحذق والتجويد ما يميلون به النفوس إليهم، وبصير الذكر لهم، قال: ولا يدفع هذا عنهم إلا جاهل أو مبطل، أنتهى))^[٥٣]، وهذا انما دلّ على الحالة النفسية للكاتب من ضيق لما وصف به أهل الأندلس.

وبعد هذا العرض لبناء الرسائل لابد من التطرق الى بضعة أمور نراها تزيد المعنى وضوحاً وتجلو الغمام وهي:

أولاً: عدم وجود مقدمة أو خاتمة لبعض النقول التي أوردها المقري وهي رسالة ابن غالب وأبن سعيد، وقد يكون السبب رغبة المقري في الاختصار -وهذا ما عرف عنه- أو لأن هذه المقدمات والخواتيم قد تتشابه مع بعضها ولم تكن تدل على غرض الكاتب بل كانت تقليدية. وهذا ما أشار إليه علي بن محمد إذ قال: ((أمّا ما يتّصل برسائل الأدباء الأندلسيين، فإن الغالبية العظمى منها تخلو من كل الخطوات التمهيدية، فلا نجد فيها عنواً، ولا بسملة، ولا تحميداً، ومما يدل على أنّ الذين يجمعون نصوص الأدب، ويؤرخون لها من كتاب المصادر، كانوا يختصون ما ينقلونه منها بحذف الفقرات التمهيدية فيها))^[٥٤].

ثانياً: أمّا ما تضمنت المقدمة والخاتمة فقد أوجز الكتاب فيهما، ودلّت على مقصد الكتاب بأن جعلوا الألفاظ شيقة وجادة^[٥٥]، يفهم من خلالها ما أراد الكتاب من جوّ نفسي، كما ساعدت على جذب انتباه المتلقي.

ثالثاً: حجم الرسائل فقد كانت رسالة ابن حزم والشقندي أكبر الرسائل لأن عدد صفحات رسالة ابن حزم سبع وعشرون صفحة، أمّا الشقندي فقد كانت هي أربعاً وأربعين صفحة ثم يأتي تذييل ابن سعيد إذا كان عدد صفحاتها سبعا وأبن صقلاب أربع وأبن غالب وأبن سعيد والحجاري والحميدي لا تتجاوز الصفحتين. وهذا يوضح لما كان الاهتمام برسالة ابن حزم والشقندي أكثر من غيرهما.

رابعاً: إن رسالة ابن حزم كان الجانب التوثيقي فيها هي الكتب المؤلفة في صنوف العلم المختلفة، أمّا الشقندي فقد كان الشعر الجانب التوثيقي الأكثر بروزاً لتأكيد فضل ومزية أهل

الأندلس بالجانب الأدبي، ثم يأتي بالمؤلفات ووصف مدن الأندلس وصفات أهلها وأهم ما امتازت به.

فالشعر في رسالة الشقندي قد أخذ الحيز الأكبر فقد أخذ أكثر من نصف الرسالة إذ أورد الشقندي مئتين وثمانية عشر بيتاً شعرياً في مختلف الأغراض الجديدة والتقليدية من ذلك نعلم أن حجم الشعر بالنسبة لرسالة الشقندي أكثر من نصفها.

أمّا نص الحميدي فقد كانت قطعة المشرقي أربعة أبيات بينما بديهة ابن هذيل ستة أبيات مما يعطي دليلاً مؤكداً على تفوق أهل الأندلس في الشعر.

وخامساً: جمع الكتاب في خواتيم رسائلهم ما كان معروفاً في عصرهم من أنواع الخواتيم القطع، المدح، والحكمة، الصلاة على النبي مقترناً بالفخر. فكانت إيذاناً بوصول الرسائل الى نهايتها واعلام القارئ بذلك.^[٥٦]

وهذا إنّما دل على الشخصية الأندلسية المبدعة، التي لم تقف مكتوفة اليدين، تنتظر بدهشة وذهول إلى النماذج الرائعة، وتكتفي بالإعجاب، بل حاكتها محاولةً للحاق بها.^[٥٧]

أما ما تضمنت المقدمة والخاتمة فقد أوجز الكتاب فيهما ودلتا على مقصد الكاتب بأن جعلوا الألفاظ رشيقة وجادة^[٥٨]، يفهم من خلالها ما أراد الكتاب من جو نفسي، كما ساعدت في جذب انتباه المتلقي.

وقد تعارف الكتاب على أن تكون الخاتمة إما أدعية، أو إقراء للسلام، أو إشارة الى الاختتام، ممّا يصلح أن يكون في أحسن الأحوال نهايات تقنية للرسالة، أما النهايات المنهجية ذات المضمون المرتبط بالمعنى العام، المتصل أوثق الصلة بالمقدمة^[٥٩]، فقد وجدناه عند الشقندي.

وإذا اعدنا النظر الى باقي النصوص لم نجد المقدمة بل الدخول الى الغرض مباشرة ولعل السبب أن مقدمات هذه الرسائل قد تشابهت حتى لم يبرز ابداع الكاتب لذا رأى المقرري حذف هذه المقدمات للاختصار وتجنباً للإطالة والتكرار، لذا سماها نصوصاً وليست رسائل فهي نصوص من هذه الرسائل. وهذا ما اشار إليه علي بن محمد إذ قال: ((أما فيما يتصل برسائل الأدباء الأندلسيين، فان الغالبية العظمى منها تخلو من كل الخطوات التمهيدية، فلا نجد فيها عنواناً، ولا بسملة ولا تحميداً. وممّا يدل على أن الذين يجمعون نصوص الأدب،

ويؤرخون لها كتاب المصادر، كانوا يختصرون ما ينقلونه منها بحذف الفقرات التمهيدية فيها)).^[٦٠] لذا لا يمكن الجزم بخاتمة الرسائل.

الخاتمة

الحمد لله على تمام نعمته وفضله، المتفضل علينا بإنهاء هذه الرحلة الممتعة في هذا الأدب الجميل، البعيد القريب، متناولين رسائل دافع بها أصحابها الأندلسيون ووقفوا إزاء غيرهم من الأمم بصورة عامة، وبر العدة بصورة خاصة. ولم يكن بناء الرسائل على نهج واحد فقد توزعت بين الرسائل المحتوية على مقدمة وتحميد وخاتمة، ورسائل دخلت إلى الغرض مباشرة، ولا نعلم إن كانت فعلاً من غير مقدمة وتحميد وخاتمة، أم اختصرها المقري، فإن كانت من غير مقدمة، فهي سائرة في ركب التجديد، وإن أصحابها لم يكونوا في مقام يسمح لهم بقول ذلك، أو إن المقري حذفها حتى لا يطيل، وفي كل الأحوال فقد كانت الرسائل كلاماً موجهاً ردعياً لكل من قلل من الأندلس وأهلها. وأخيراً فإنّه على الرغم من وجود رسائل الفضائل في المشرق، إلا أنّ أهل الأندلس أضفوا عليها طابعهم الخاص ممّا جعلها إضافة هامة إلى أدب المشرق، معبرةً وناطقّةً عن طبيعة أهل الأندلس.

هذا أبرز ما توصل إليه البحث، فإن أصبتُ فمن عند الله، وإن أخطأتُ فمَنّي، وحسبي أنّي سعيْتُ واجتهدتُ والله الموفق.

Abstract

Artistic Structure in the Letters of the Virtues of the People of Andalusia

Keywords: Artistic.Structure. Letters.virtues

A Doctorate dissertation extracted research

M.A. Candidate

Sheimaa Sattar Jabbar Al Khafaji(m.m)

University of Diyala

College of Education for Human Sciences

Supervisor

Prof. Huda Shawqat Bahnaam (Ph.D)

University of Al_ Mustansiriya

College of Education

This study dealt with letters whose Andalusian writers defended their nation against other nations in general, and Bir bin Adwa in

particular. These letters where not following the same structure. Some of them contain introduction, purpose and conclusion; while the others started directly with the purpose. We do not know whether these letters originally did not have an introduction purpose and conclusion, or they were shortened by Al Muqri'. If the first reason is true, these letters would be of modernism even if their writers did not propose that. In all cases, these letters contained a directed defending speech against anyone underestimated Andalusia and its people. Finally, although there are letters of the virtue of the orient people, the people of Andalusia has added a special aspect and an important addition to the orient literature with Andalusian nature .

الهوامش

١. ينظر: نص اندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس لابن غالب: م ١: ٢٧٨/٢.
٢. فضائل اهل الاندلس (نصان جديان): ٨٨ وما بعدها.
٣. ينظر: القاموس المحيط: مادة فضل باب اللام، فصل الفاء.
٤. ينظر: لسان: مادة فضل، باب اللام، فصل الفاء.
٥. سورة الاسراء: الاية ١٧.
٦. ينظر: المعجم الوسيط: ٦٩٣.
٧. ينظر: مفهوم الادبية في التراث النقدي الى نهاية القرن الرابع: ٢٧.
٨. ينظر: مستويات المفاضلة في نقد الشعر عند العرب حتى نهاية القرن الخامس الهجري: ٥.
٩. ينظر: الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة : ق ١/م ٢/١٩٤-٢١٤؛ ٦٧٤-٦٨٥.
١٠. ينظر: تاريخ الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين،: ١٣٨.
١١. ينظر: فنون النثر في الادب: ٤١.
١٢. ينظر: المقامات الاندلسية في عصري الطوائف والمرابطين: ٢١١. والنثر الاندلسي في عصر الموحدين: ٢٠٠.
١٣. النثر الاندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: ٢٦٨.
١٤. مفتاح العلوم: ١٦٨.
١٥. ينظر: بلاغة الاقناع في المناظرة: ١٤١.
١٦. ينظر: مفهوم النثر الفني واجناسه في النقد العربي القديم: ١٢٠-١٢٢.
١٧. كتاب: ٣٩٩.
١٨. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: ١/١٨١.

١٩. ينظر المثل السائر في ادب الكاتب: ٩٨/٣.
٢٠. نفع الطيب من غصن الاندلس الرطيب: ١٥٨/٣.
٢١. المصدر نفسه: ١٨٧/٣.
٢٢. احكام صنعة الكلام: ٧٢.
٢٣. المصدر نفسه: ٧٥.
٢٤. النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس - مضامينه واشكاله: ٤٧٨.
٢٥. ينظر: المصدر والصفحة نفسها.
٢٦. ينظر: منهاج البلغاء وسراج: ٢٩٨ - ٣٢١.
٢٧. ينظر: احكام صنعة الكلام: ٤٨.
٢٨. النفع: ١٥٨/٣.
٢٩. المصدر نفسه: ١٦٠/٣.
٣٠. ينظر: أحكام صنعة الكلام: ٧٦٩.
٣١. النفع: ١٦٠/٣.
٣٢. المصدر نفسه: ١٨٧/٣.
٣٣. المصدر نفسه: ١٥٤/٣.
٣٤. رسائل أندلسية: ٢٥١.
٣٥. ينظر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: ٣٥٩، ٣٦١.
٣٦. النفع: ١٥٤/٣.
٣٧. المصدر نفسه: ١٥٢/٣.
٣٨. ينظر: النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: ٣٦٣.
٣٩. ينظر: الرسائل النثرية الشخصية في العصر العباسي: ٤١.
٤٠. ينظر: خطب المحافل والمقامات في العصر: ١٢٨.
٤١. ينظر: النثر الأندلسي في عصر الموحدين: ٢٠٠.
٤٢. النفع: ١٦٤ /٣.
٤٣. ينظر: الرسائل الفنية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي: ٢١٢-٢١٣.
٤٤. النفع: ١٥٦/٣.
٤٥. ينظر: الرسائل الفنية، غانم جواد: ٤١٥.
٤٦. صبح الأعشى في صناعة الإنشا: ١٤١/٨ وما بعدها.
٤٧. ينظر: الرسائل الفنية: ٤١٢.
٤٨. ينظر: النثر الأدبي في القرن الخامس: ٤٩٥/٢.

٤٩. النفح: ٢٢٢/٣.
٥٠. المصدر نفسه: ١٧٩/٣.
٥١. المصدر نفسه: ١٥٦/٣.
٥٢. ينظر: النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس: ٤٩٦.
٥٣. ينظر: المصدر نفسه: الصفحة نفسها.
٥٤. المصدر نفسه: ٤٨٤.
٥٥. ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٢/١.
٥٦. ينظر: النثر الأدبي الأندلسي: ٤٩٨.
٥٧. ينظر: الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: ٣٨٠، والبيئة الأندلسية وأثرها في الشعر: ١٩٥.
٥٨. ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ١٢١/١. وكتاب الصناعتين: ٩٨/٣.
٥٩. ينظر: النثر الأدبي في القرن الخامس: م ٢: ٤٩٥.
٦٠. النثر الأدبي الأندلسي في القرن الخامس (مضامينه وأشكاله): ٤٨٤.

المصادر والمراجع

❖ القرآن الكريم

- إحكام صنعة الكلام: لذي الوزارتين أبي القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي الإشبيلي الأندلسي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، (د.ط)، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م.
- بلاغة الاقناع في المناظرة: د. عبد اللطيف عادل، دار ومكتبة عدنان، ط ١، بغداد، ٢٠١٣م.
- البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر، عصر ملوك الطوائف: د. سعد شلبي، دار نهضة مصر، (د.ط)، مصر، (د.ت).
- تاريخ الادب الاندلسي - عصر الطوائف والمرابطين: د. احسان عباس، دار الشروق، ط ٢، الاردن، ٢٠٠١م.
- خطب المحافل والمقامات في العصر الأموي: د. غانم جواد، دار صادر، بيروت، ودار الكتب العراقية، بغداد، ط ١، ١٤٣٣ هـ ٢٠١٢م.
- الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة: ابو الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢ هـ) تحقيق: د. احسان عباس، دار الثقافة، ط ١، بيروت - لبنان، ١٩٨٧م.

- الرسائل الفنية في العصر الإسلامي إلى نهاية العصر الأموي: د. غانم جواد رضا، دار صادر، بيروت، ودار الكتب العراقية، بغداد، ط١، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- رسائل أندلسية: تحقيق: د. فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف بالإسكندرية، ط١، ١٩٨٩م.
- الشعر في عهد المرابطين والموحدين بالأندلس: د. محمد مجيد السعيد، الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٥م.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا: شرح وتعليق: عليّة نبيل خالد القطب، دار الكتب العلمية، ط١، بيروت، ١٩٨٧م.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع، القاهرة، (د.ط.)، ٢٠٠٩م.
- فنون النثر في الادب العباسي: محمود عبد الرحمن صالح، دار جرير، ط١، عمان - الاردن، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.
- القاموس المحيط: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)، دار الجيل.
- كتاب الصناعتين: أبو هلال العسكري (ت٣٩٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي البجاوي، المكتبة العصرية شركة أبناء شريف الأنصاري، (د.ط.)، صيدا، لبنان، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.
- لسان العرب: ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور (ت٧١١هـ)، دار صادر، بيروت، (د.ط.)، (د.ت.).
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: ضياء الدين ابن الأثير (ت٣٣٧هـ)، تحقيق: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، مطبعة النهضة، ط١، مصر، ١٩٥٩م.
- مفهوم الادبية في التراث النقدي الى نهاية القرن الرابع: توفيق الزيدي، سراس للنشر، تونس، ١٩٨٥م.
- مفهوم النثر واجناسه في النقد العربي القديم: د. مصطفى البشير قط اليازوري، (د.ط.)، عمان - الاردن، ٢٠٠٩م.

- المعجم الوسيط: اخراج: ابراهيم مصطفى وآخرون، مجمع اللغة العربية، الادارة العامة للمعجمات و احياء التراث، دار الدعوة، (د.ط)، استانبول - تركيا، (د.ت).
- مفتاح العلوم: ابو يعقوب يوسف بن ابي بكر السكاكي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق: اكرم عثمان يوسف، مطبعة دار الرسالة، ط ١، ١٩٨١م.
- منهاج البلغاء وسراج الأدياء: أبو الحسن حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ)، تقديم: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، ط ٣، ١٩٨٦م.
- النثر الادبي الأندلسي في القرن الخامس - مضامينه وأشكاله: علي بن محمد، دار الغرب الإسلامي، ط ١، بيروت، لبنان، ١٩٩٠م.
- النثر الأندلسي في عصر الطوائف والمرابطين: د. حازم عبد الله، منشورات وزارة الثقافة والإعلام، دار الرشيد للنشر، (د.ط)، بغداد، ١٩٨١م.
- النثر الأندلسي في عصر الموحدين: علي الغريب محمد الشناوي، مكتبة الآداب، ط ١، القاهرة، ٢٠٠٩م.
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب: المقري التلمساني (ت ١٠٤١هـ)، تحقيق: د. احسان عباس، دار صادر، ط ٦، بيروت، لبنان، ٢٠١٢م.

❖ الاطاريح

- المقامات الاندلسية في عصري الطوائف والمرابطين :شاهر عوض الكفاوين، جامعة الملك عبد العزيز ،مكة المكرمة، كلية الشريعة والدراسات الاسلامية ،١٤٠١هـ.

❖ المجلات

- الرسائل النثرية الشخصية في العصر العباسي: د. خالد الحلبيوني، مجلة جامعة دمشق: م ٢٥، ع ١ و ٢، ٢٠٠٩م.
- فضائل اهل الاندلس نسان جديان: د. محمود خياري، مجلة الذخائر، ع ١١ او ١٢، صيف وخريف ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م.
- نص اندلسي جديد قطعة من كتاب فرحة الانفس لابن غالب: د. لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية: م ١، ج ٢.